شهر زاد تتجلى

(إهداء إلى روح خليلتي الوحيدة
التي رجعت إلى ربها راضية مرضية)

تركتِ الدار موحشة الجنابر ... ورُحت وأنت في شرخ الشباب
دفنتك في التراب وكنت عندي ... أعزّ الخاطرين على التراب
وأودعتُ الثرى كنزاً ثميناً ... من الأخلاق والشيم العذاب
وغاب مع السكون الجهم صوتٌ ... على شفتاه يعفو اضطرابي
وغيّب في ظلام القبر نور ... وخلّف لي لهيباً من عذاب
يؤرّقني غيابك من حياتي ... وما أقسى مرارات الغياب !
لمستِ النجاة فرُحت جسماً ... طريّ العود خفّاق الاهاب
وعُدتِ إليّ لا قفص يحسّ ... ولا روح يلطف من مصابي
ولو أني استطعت بلمس قلبي ... قديمك من أعاصير التباب
أنادي باسمك الغالي ، ولكن ... أراك عييت عن رد الجواب
وكنتِ إذا سكتُّ ملأتِ نفسي ... بألوان الحديث المستطاب
أنادي . . والأنين يجيب صوتي ... وأهتف والجواب صدى انتحابي
وتطغي الدموع . . . وأي صبر ... يقرّ أمام دمع في انسكاب !
وأي مصيبة نزلت بساحي ! ... وأي رزيئة وقعت ببابي !
وما بطيء الخطى افتقادي ... أعزّ الأقربين إلى انتسابي
فقدتك وافتقدت عزاء نفسي ... وكنت لي العزاء وقد خلا بي !

***

أراكِ - وقد أراكِ الموت حلماً - ... بسمتِ فقد خلصت من العذاب

رؤى الدنيا كواذب خادعات ... وقد صبغت بألوان كذاب
تساق إلى مفاتنها ، وتمضي ... سُقيتِ المسحرين إلى السراب
ونعشو كالفراش على شعاع ... جحيمي الحرارة والشهاب
نؤمّل ما نؤمّل ثم تطوى ... مع الأنفاس آمالٌ خوابي
تعللنا بمسول الأماني ... ونلوح بالتحلة كلّ ساب
ونأخذ من يد الأيام كأساً ... تداولُ بالقديم من الشراب
نجرّعه وليس لنا بديل ... إلى الشكوى من الألم المذاب
وتسلبنا الأنى ، وليس حرصٌ ... بعالم كفها عن الاغتصاب
مضت بالأولين ، وسوف تمضي ... بنا وبغيرنا من كل باب
نعيش وحولنا أهلٌ وصحبٌ ... ونحن من الحياة على اغتراب
وما حمل المرارة غيرُ حي ... زواه الموت عن هذا الركاب
يشيّع نفسه في كل عين ... وراء الراحلين من الصحاب ..!

***

هنيئاً يا العزيزة ! لست أدري ... أكنتِ خيال وهمٍ في عبابي ؟!
أسائل موج أيامي أكانت ... ليالينا بها خفق الشهاب ؟!
وكنا ناعمين على سرير ... رخيٌّ الريح يهزج في انسياب
يوحدنا الحنان الجمّ حتى ... كأن رغاب نفسك من رغابي
فلم يعصف برحلتنا خلافٌ ... ولم نعرف لجاجات الشغاب
ولم يلمم بنفسينا خصام ... ولا خطرت بنا نعم العتاب
فما لك قد قطعت مُراك منها ... وعوجل نجم عمرك باحتجاب ؟!
وروّع ليلنا الزاهي بفجر ... دميم الوجه مهتوك النقاب
وهبت في الصباح الطلق ريح ... تسوق إليه داكنة السحاب
وزُلزلت السفينة وهي تمضي ... تدق عباب أمواج غضاب
منكسة الشراع كأن لمشاً ... سرى في اليمّ ما بين اضطراب

ثم جرّ الموانحُ ذيلات ... كأن سيلها أحشاء داب
وقهقهت الغدائر وهي تهمله ... مسلسلة بأظفار وناب
فألقى في الأسى في غسقه وعي ... شريد الفكر مفدوه التصاب
أجوب الغاطئين غريب دار ... مطلسمة المعالم والنصاب
كأن لسيمها أنفاس جنّ ... وأن حفيفه صوت الباب !
فما منها البشاشة هل يرم ... أماء إلى مغانيها الرطاب

* * *

شقيقتيَ العزيزة ! أي خطب ... بليتُ به ولم يبك في حسابي !
كتاب حياتك اختتمته بلوى ... فكان الرزء خاتمة الكتاب
طويل فصوله سنةٌ وعامٌ ... سريع الخطو ومضيُّ الوثاب
طواه الموت مختزماً مجولاً ... كما يطوى الحديث بالاقتضاب
وكانت قصة القدر المعمّى ... وكانت قصة الزمن المحابي
صبرت على متاعبها ، وكانت ... مجرفك في فؤادي كالحراب ..

* * *

شقيقتيَ العزيزة أي ذكرى ... معطرة تحيّتْ عن كل عاب !
حديثك في فم الأهلين عهدٌ ... وبُعدك عن ديارك كأس صاب
وما عوّدتني في العيش نأياً ... فكيف وقد رحلت بلا إياب !
ذهبتِ عهيدة اللقاء ربّ ... كريم الأجر ، مرجوّ الثواب
حملتِ على يديك كتاب طهرٍ ... وعفّة خاطرٍ ، وتقى هيابِ
رحلتِ وأنت بالعمة رضاةٌ ... وما خلّفت لي إلا اكتئابي
سأمضي بعد مزلتكِ في حياتي ... كما يمضي المغامر في الضبابِ
خلَتْ من كل ملواذ وهانت ... وقد ضاقت بأحزاني رحابي ...

حسن كامل الصيرفي